وقفات مع توجيهات نافعة من آداب ودروس سورة الحجرات الجامعة

2022-11-18

الحمد لله الذي جعل القرآن تِبياناً لكل شيء. وهدى ورحمة للمؤمنين، وجَمع فيه أصول الدين وفروعه، وأصلح به أمْر الدنيا والدين، فسبحانه من إله جعل القرآن العظيم إلى رضوانه سبيلا، وجعل تطبيقه على صِدق الإيمان دليلا، وجعل الاقتداء به شرطا حتى يكون عمل المسلم مقبولا، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. ولِيُّ الصالحينَ، جعلَ القرآنَ الكريمَ منارًا وهدًى للسالكينَ، فَصَارَ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ مِنْ كُلِّ ضَائِقَةٍ مَخْرَجاً، وَحِصْناً حَصِيناً لِمَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ. فَجَعَلَ لَهُ بِبَرَكَتِهِ مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ فَرَجاً، وَجَعَلَ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ مُتَنَقِّلَةً فِي مَنَازِلِ عُبُودِيَّتِهِ حُبّاً وَخَوْفاً وَرَجاً، وَأَشْهَدُ أَنَّ سيّدنا ونبيّنا ومولانا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. وصفيّه من خلقه وخليله. أَرْسَلَهُ ربّه إِلَى النَّاسِ مُصْلِحًا وَمُزَكِّيًا، وَعَلَى الفَضَائِلِ دَلِيلاً وَمُرَبِّيًا، فأنزل عليه القرآن تنزيلا، وجعل تطبيقه على صِدق الإيمان دليلا، وجعل الإقتداء به شرطًا حتى يكون عمل المسلم مقبولا، فَكَانَ صلى الله عليه وسلم قُدْوَةَ الصَّابِرِينَ، وَأُسْوَةَ السَّالِكِينَ،

يا أيّها الناس هذا سيِّدُ الأُمَمِ * في طاعة الله رجّانا ورغّبنَا

ومِنْ مخالفة الرحمان رهّبنا * يا أمّةً سعِدَتْ هذا نبيّكمُ
صلّوا على الهادي إلى الدّين القويمْ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد، بغية السالكين المنتسِبين إلى الله. وعلى آله ذوي السيادة والجاه. وصحابته الفائزين برضى الله. صلاة تجعلنا بها من المهتدين بهداه. المغترفين من بحر كرمه ونداه. الساعين في تحصيل طاعته ونيل رضاه. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن العظيم هدًى للمتّقين. ونوراً يهدى به عباده الصالحين. فقال سبحانه في

سورة المائدة:((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)). وفي القرآن الكريم الكثير من التوجيهات الربانية التي تحتاجها البشرية في مسيرة حياتها. وسورة الحجرات المسمّاة بسورة الآداب، من السُّوَر الكريمة التي تضمّنت المعاني الجليلة، والأهداف السامية النبيلة، وهي جامعة للخيرات، مبنية على حُسن الفضائل والعادات، فإنها مع قصرها، وقلّة عدد آياتها. جاءت شاملة لأحكام وآداب. وأوامر ونواهٍ. لا تجدها مجتمعة في سورة سواها. وتشتمل السورة على كثير من حقائق العقيدة والتشريع والأخلاق، وقد جاءت آياتها كمنهج متكامل لمجتمع إسلامي، سليم العقيدة، نقيّ القلب، عفّ اللسان، مهذَّب الأخلاق، نقيّ السريرة مع الله. مجتمع له أدب مع الله جل وعلا. وأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أدبه مع نفسه، ومع غيره. مجتمع تُصان فيه الحرمات، ولا تُتبَّع فيه العورات. مجتمع ربّاه القرآن على يد مَن كان خُلُقه القرآن. صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. تبدأ السورة بنداء الكرامة. وهو الإيمان. هذا النداء المحبَّب للنفوس. والمحرِّك للقلوب، يقول ابن عباس رضي الله عنهما:((إذا سمعتَ اللهَ تعالى يقول: يأيها الذين آمنوا. فأرعها سمعَكَ. فإنه خير يؤمر به. أو شر ينهى عنه)). قال تعالى:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)). إنه أدب نفسي مع الله تعالى وهو أعلى أنواع الأدب، إنه المعتقد الصحيح في التلقّي والتنفيذ. وهو أصل من أصول التشريع، إنها التقوى النابعة من الشعور بأنّ الله سميع عليم، إنه مرآة الإيمان الصادق. والنزاهة من النفاق وأهله، فلا يُسيء الأدب مع الله إلا كافر لا يؤمن بالله صراحة، كاليهود الذين قالوا يد الله مغلولة. وقالوا: إنّ الله فقير. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، أو كالنصارى الذين زعموا أنّ لله ولداً. وأنه ثالث ثلاثة والعياذ بالله، ويُسيء الأدب مع الله أيضاً المنافقون. في نقضهم لأحكام الشريعة. وسخريتهم بآيات الله. واستهزائهم بالمؤمنين والمؤمنات. عياذاً بالله من النفاق. أيّها المسلمون. وكما يكون الأدب مع الله تعالى. يكون مع نبيّه صلى الله عليه وسلم. ففي حياته يكون الأدب في الحديث والخطاب. والتوقير في القلوب توقيراً ينعكس على

نبراتهم وأصواتهم. ويميّز شخص الرسول صلى الله عليه وسلم من بينهم، والله عز وجل يدعوهم لذلك. ويُحذّرهم من مخالفته. يقول سبحانه وتعالى:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)). ولقد تربّى جيل الصحابة رضي الله عنهم على هذا الفهم الواعي. فكانوا قمّة في الأدب والتأدّب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما جاء من حديث أنس رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد في مسنده. قال:((لمّا نزلت هذه الآية (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...)، كان ثابت بن قيس بن شمّاس رضي الله عنه رفيع الصوت. فقال: أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله أنا من أهل النار، حبط عملي. وجلس في أهله حزيناً، ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقّدك رسول الله مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق النبي وأجهر له بالقول، حبط عملي أنا من أهل النار. فأتوا النبي فأخبروه بما قال. فقال: (لا بل هو من أهل الجنّة)، قال أنس رضي الله عنه: فكنّا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنّة)). والتأدّب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته يكون في احترام شريعته. وعدم تقديم العقل عليها. والإعتزاز بها. والعمل بموجبها. والدعوة لها. أيّها المسلمون. ولقد وصف الله تعالى المتأدّبين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّهم أصحاب تقوى. وأنّ لهم مغفرة وأجراً عظيماً، وفي المقابل وصف الله الذين ينادونه من وراء حجرات بيته بأنّ أكثرهم لا يعقلون. وكان الأَوْلى في حقهم كما قال الله تعالى:((وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)). ولقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع. وتجاوزوا به كل أستاذ وعالم جليل. لا يزعجونه حتى يخرج إليهم. ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم، يُحكى أنّ أبا عُبيد العالم الزاهد الرواية الثقة. رحمه الله أنه قال: ما دققتُ باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه. فكان التوجيه الأوّل في أوّل السورة لاحترام وتوقير جهة التلقّي عظمة الله عز وجل وجناب رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم كان التوجيه الثاني في أدب التعامل مع قائد الأمّة. حتى يصبح بعد ذلك للتوجيهات قيمتها ووزنها وطاعتها، أيّها المسلمون. ثم جاء النداء

الثالث يبيّن للمؤمنين كيف يتلقّوْن الأنباء. وكيف يتصرّفون معها. ويؤكّد ضرورة التثبّت من مصدرها. فقال تعالى:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)). وخَصّص الفاسق لأنه مظنّة الكذب. وحتى لا تُفقد الثقة في مجتمعات المسلمين. لأنّ الأصل أن يكون أفرادها موضع ثقة. وأن تكون أنباؤهم صادقة مأخوذاً بها، وكلمة فاسق تشمل كل مَن اتّصف بالفسق والعصيان، فالمسلم لا يأخذ الحق من الفاسق ولو تزيّن في الظاهر، والمسلم في هذا العصر لا يجوز في حقه أن يكون مصدر معلوماته ومنطلَقات حُكمه الصحف والمجلاّت والفضائيات التي تبثّ الفسوق والفجور والعصيان، حتى إنّ بعضها يَقلب المفاهيم. ويطمس الحقائق. ويشوّه الفضيلة. ويزيّن الرزيلة. ويهاجم الشريعة، وصدق الله العظيم بقوله:((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ))، إنه ندمٌ يصيب المؤمن في الدنيا إذا اكتشف الحقيقة. وندمٌ يصيبهم في الأخرى جزاء ما اقترفته ألسنتهم وسائر جوارحهم. ولكنّ الله تعالى لا يترك عباده المؤمنين هملاً. لا يتركهم عالة على خبر الفاسق وعلى مروّجي الأكاذيب. بل يطمئنهم بوجود الوحي المنزَل بقوله تعالى:((وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ))، لقد أراد الله بعباده المؤمنين خيراً حين حبّب إليهم الإيمان وزيّنهم به. وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، إنه بقدر قوة الإيمان وتمسّك الإنسان به تكون قوة كُره الكفر والفسوق والعصيان. أيّها المسلمون. لا تزال توجيهات سورة الحجرات تتوالى للأمّة المسلمة. ولا يزال الحديث موصولاً عن الفاسق، فالفاسق سواء كان إنساناً. أو جماداً مسيَّراً من فاسق. فأثره السيّء يتعدّى الفرد إلى المجتمع إلى الأمّة بأكملها. وبعد أن حذّر الله من الإنسياق وراء خبر الفاسق، عقّب الله تعالى بقوله:((وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ))، قاعدة تشريعية علمية لصيانة المجتمع من الخصام والتفكّك. والإصلاح يكون بين الناس كما قال الله تعالى بالعدل والقسط، وإنّ الإصلاح بين الناس باب عظيم من أبواب الخير. فهو يجمع الشمل. ويقارب بين القلوب. ويوحّد الكلمة. قال تعالى في سورة النساء:((لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)). والخلاف وارد. لاختلاف النفوس والطبائع. سواء كان بين زوجين. أو شريكي تجارة. أو زميلين. أو جارين. أو قريبين. أو غيرهما، وغالباً ما تكون المشكلة صغيرة والهوة ضيّقة. فهي تحتاج إلى طرف ثالث ناصح يوفّق ويقرّب، وبعد أن أمر الله بذلك ذكر الجميع بالرابطة الوثيقة بينهم والتي جمعتهم بعد تفرّق. وألّفت بينهم بعد الخصام. فقال:((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ))، ورحمة الله لا تنال إلا بتقواه. فلمّا ذكر الله المتخاصمين ذكّر الأمّة جمعاء بقوله تعالى:((وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)). فاتقوا الله عباد الله. وتدبّروا آياته، وتأمّلوا في أسراره وإعجازه، واهتدوا بهدي سنّة نبيّكم، وتذكّروا هذه الآداب، واعملوا ليوم الحساب، وكونوا عباد الله إخوانا. ((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)). نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن الكريم، وبأقوال وأفعال خاتم المرسلين، صلى الله عليه وسلم. ونسأل الله أن نعمل بهذه السورة خاصة، وبالقرآن عامّة، وأن نتخلّق بأخلاق القرآن الكريمة. كما نسأل الله أن يكون القرآن هو خُلُقنا، كما هو خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه سميع قريب مجيب الدعاء. اللهم إنّا نسألك البرّ والتقوى. ومن العمل ما ترضى، اللهم إنّا نسألك التقى والعفاف والغنى، اللهم آت نفوسنا تقوها. وزكّها أنت خير من زكاها. أنت وليّها ومولاها، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ